حِبر أبيَض
WHITE INK

د.علي البسام

# "من أسرار القصور العثمانية"

لطالما شاهدنا قصور السلاطين العثمانيين في عاصمتهم إسطنبول شاخصة أمام الأعين تحكي لنا قصـــة التاريخ العثماني الممزوج بصور الأُبَّهة والفخامة، إذ كانت تحاول أن تجاري العواصم الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، باعتبارها عاصمة لإمبراطورية كبرى آنذاك.

وخُلِّفت تلك القصور لتصبح في الوقت الراهن أحد أبرز معالم الجذب السياحي، ومصدرًا من مصـــادر الدخل للدولـــة التركية الحالية، فالســـياح القادمون من أصقاع المعمـــورة عندما يأتون إلى العاصمة التاريخية تشـــدهم مظاهر تلك القصور، حتى تصيبهم بحالة من الانبهار عن حجم أشـــكال وصور الترف المبالغ فيه، الذي عاشـــه بعض الســـلاطين ومـــن لَفَّ لَفَّهم بعيـــدًا كل البُعْدِ عن واقع المجتمعات السكانية التي كانت تخضع للإمبراطورية، مما يدلل على وجود حالة عظيمة من الانفصام التام بين واقع الطبقة الحاكمة وبين الناس.

ولعل من أشـــهر تلك القصور "طولمة باغجة"، الذي أمر ببنائه السلطان عبد المجيد (1839 -1861) ميلادي، وانتهي منه ســـنة 1856ميلادي. واتخذه سكنًا له ولحاشيته ومقرًّا رسميًّا له لاستقبال ضيوف الحكومة الأجانب.

واعتمد في بناء هذا القصر على الطراز الهندســـي الأوروبـــي الغربي، فخرج على هيئة تحفة معمارية في منتصف القرن التاسع عشر، وهي -في الحقيقة- تعكس حالة السلطان المتأثرة المتدثرة بالفكر والثقافة الأوروبية، إضافة إلى الميل إلى عوالم الترف الدنيوي.

تضمن القصر عدة مبان منها؛ المبنى الرئيس، وبرج الســـاعة، وقصر الحرملك وقصر ولي العهد، وقصر المابين، والمسرح الخاص. وتزين القصر بعدد من الحدائق الغَنَّاء.

ووصلت كلفة بناء القصر إلى الملايين من الليرات الذهبية العثمانية. أرهقت ميزانية الدولة وجعلتها تحت ضغط مديونية كبيرة.

ونعود للحديث هنا عن الحرملك، في ذلك القصر فهو مقر إقامة نساء السلطان من أزواجه وبناته، وجواريه اللواتي يُجلبن صغيرات السن بواسطة تجار الرقيق، أو ما يُهدَين إلى السلطان، وغالبا ما كان يراعى في اختيار جواري الحرملك الجمال والحُســـن ودقـــة التكوين والخلقة، بغض النظر عن حَسَـــبِهِنَّ ونَسَـــبِهِنَّ ومن أي مكان جُلِبْنَ، فالفتيات اللواتي يتمتعن بمواصفات الجمال الآسر يُقَدَّمن للسلطان، وقد تصل إحداهن إلى مرتبة "كوزده" أي المنظورة لدى السلطان، فيصعد نجمها في الأفق وتكون المحظية الخاصة.

ولم تكن تلك القصور في حقيقتها إلا مظهرًا ونوعًا من التباهي والتفاخر والترف، وتحضرني هنا المقولة الشهيرة لابن خلدون "وإذا عَظُم المال انتشر الترف الذي يؤدي إلى انهيار الدولة"، ولذا حل بالســـلاطين ما حل بغيرهم فانزلقوا في غياهب الشهوات والملذات والمحرمات، وهو ما أكده المؤرخ التركي "يلماز أزوتونا" بقوله عن السلطان عبد المجيد أنه كان مشغولا بالنساء والشراب، وتَعَجُّبه من النســـاء الشـــقراوات ذوات العيون الزرق، فأصبح القصـــر يعج بالمحظيـــات الأوروبيات من مختلف القوميات والأجناس، اللواتي سُرقن من أوطانهن أو خُطِفن، فأصبحن في القصر يقمن بأدوار المتعة وإحياء حفلات السمر والمجون، وما تبع ذلك من مراحل ضياع الهيبة والمكانة للسلطان والدولة معا، فبعض السلاطين مثلا قضى أيامه بين الجواري والموسيقيين حتى أصبح ألعوبة بينهم.

وجاء بعده السلطان عبد العزيز (1861-1876) ميلادي، وقد بلغ عدد الجواري في قصره حوالي أربعمائة جارية على أقل تقدير حتى ضاقت بِهِنَّ غرف القصر وازداد معهن عدد الأغوات الخصيان زيادة كبيرة حتى بلغ عدد سكان القصر ما يزيد على الألفين عدا الحراس والعساكر.

فأي ميزانية مالية تستطيع أن تسد حجم ذلك الإنفاق والتبذير على مظاهر الترف والانحلال الذي عاشه الســـلاطين، إضافة إلى ســـد حالة التنظيمات والبرتوكولات الســـلطانية في إدارة القصر ومتطلبات الســـلطان الشخصية وأهل بيته وحشـــمه وخدمه، وقد تنبه إلى ذلك مدحت باشا الصدر الأعظم، الذي حاول وضع حد لمثل ذلك الإسراف والتبذير المتوارث منذ قيام الدولة العثمانية، وضبط الأمور المالية ومنها محاولته إلغاء نظام الرق وعتق الجواري والعبيد الموجودين في القصر.

وبطبيعـــة الحال لم تجد نفعًا تلك المحاولات أبـــدًا، بل أودت بحياته لاحقا، وخلاف ذلك كله مدى التأثير الذي أحدثته تلك القوة الناعمة في قســـم الحرملك من الجواري والمحظيات والوصيفات وغيرهن من تأثير مباشـــر على سياسة الدولة وإدارتها، وشـــهدت زيادة في النفوذ السلبي على قرارات السلطان وعلى حكومته، فضاعت الدولة بين الترف والجواري ونتج عنها الانزلاق سريعًا نحو الهاوية.